الفصل الرابع والعشرون

من الادب النبوي إلى الادب الرؤيوي(*)

الخوري جان عزام

مقدمة:

شهدت الحقبة الممتدة من حوالي سنة ٢٠٠ ق.م. إلى حوالي سنة ١٠٠ ب.م. ازدهاراً كبيراً لكتابات ذات أسلوب ومضمون مميزين، وشكلت ما يُعرف اليوم بالأدب الرؤيوي. أكثر هذه الكتابات تحمل عنواناً يبدأ بكلمة «رؤيا» ويتبعه اسم أحد الشخصيات المهمة في الكتب المقدسة؛ والمقصود أن الكتاب يخبر برؤيا رآها أحد هذه الوجوه الكتابية العريقة: أشعيا، ابراهيم، أخنوخ، باروك الخ...

هنالك كتابان فقط حظيا بالانتماء إلى الكتب المقدسة القانونية، وهما كتاب دانيال وكتاب رؤيا القديس يوحنا، أما الكتب الأخرى فتنتمي إلى لائحة الكتب المنحولة.

كلمة «رؤيا» تعني «وحي»، وتشير إلى كتاب يدّعي كشف أسرار تنتمي إلى عالم السماويات، وتدور بمجملها حول أحداث مستقبلية تخص التاريخ البشري وتطوره حتى نهاية الأزمنة.

غالباً ما يحصل الرائي على هذا الوحي الإلهي خلال رؤيا ليلية أو حلم أو رحلة سماوية يختطف فيها الرائي إلى عالم الألوهة حيث يشاهد مسبقاً الأحداث المزمعة أن تتحقّق في المستقبل. وغالباً ما يكون أحد الملائكة مرافقاً للرائي في ما يراه، فيفسر له الأسرار ويشرح له مضمونها وزمن حدوثها.

(*) ظهر هذا المقال في المجلة الكهنوتية، العدد الثالث (السنة ٢٦)، تشرين الثاني ١٩٩٦، ص ١٨٣ ـ ١٩٥

١ ـ الاطار التاريخي

أ ـ الاضطهاد الانطيوخي

منذ سنة ١٩٨ ق.م. انتقلت اليهودية من حكم البطالسة في مصر إلى حكم السلوقيين في سوريا. وفي سنة ١٧٥ ق.م. وصل إلى السلطة رجل طاغية ادّعى الألوهة وأعطى نفسه لقب «أبيفانس» أي تجلّي الله. وهذا الملك الطاغية هو أنطيوخس أبيفانس الرابع الذي أراد أن يفرض الثقافة الهيلينية على شعوب مملكته وبخاصة على الشعب اليهودي الذي كان يتمتع بوضع خاص في عهد أسلافه. فبينما شعوب المملكة كلها قبلت الثقافة الهيلينية ومزجت معتقداتها الدينية وعاداتها الاجتماعية بمعتقدات وعادات اليونان، بقي اليهود وحدهم محافظين على وحدوية معتقدهم بإلههم، ورفضوا التنازل عن شرائعهم وعاداتهم الاجتماعية، لمصلحة التمازج مع شرائع وعادات الشعوب الوثنية.

كلّ ذلك لم يعجب الأسلوب الدكتاتوري لأنطيوخس أبيفانس فبدأ يضغط بشتى الوسائل لإجبار اليهود على القبول بالتخلي عن انفرادية دينهم ومعتقدهم. ولقد لجأ أنطيوخس إلى وسائل الاغراء المتعددة ومنها عرض الوظائف الرفيعة على اليهود الذين يقبلون بالثقافة الهيلينية، ومنها أيضاً إغداق الأموال والهدايا على هؤلاء، كما أنه لجأ إلى ضرب اليهود بعضهم ببعض فتدخل بتنحية عظماء كهنتهم وتسمية عظماء كهنة موالين له. ولكن، عندما وجد أن هذه الوسائل لا تجدي نفعاً لجأ إلى وسائل العنف والاضطهاد والتنكيل، وتوّج عمله هذا بإدخال تمثال الإله زوس إلى قدس الأقداس في هيكل أورشليم حيث مركز العبادة اليهودية لوحدانية الله.

طبعاً لم يكن اليهود كلهم متمسكين بالأمانة لتقاليدهم ومعتقداتهم، وكثيرون منهم فضّلوا المساومة مع إرادة الملك، وتحوّل بعضهم إلى مشاركين في اضطهاد أخوتهم والتنكيل بهم.

في هذا الجو المبلّد من الاضطهاد الديني والتضييق الاجتماعي، ولدت الثورة المكابية التي ابتغت مقاومة الحكم الانطيوخي وانتهت كما نعلم بالنجاح في إعطاء اليهودية نوعاً من الحكم الذاتي داخل المملكة السلوقية.

ولكن الثورة المسلحة لم تكن السبيل الوحيد الذي حاول اليهود من خلاله الردّ على الاضطهاد الأنطيوخي، بل إن كثيراً من الأتقياء وجدوا في هذا الاضطهاد مناسبة لدعوة الناس إلى التمسك بالايمان وقبلو الاستشهاد في سبيله عبر مقاومة غير مسلحة، ونشاط تعليمي لكل يهودي يرغب بالمحافظة على إيمانه، وكذلك عبر حملة تبشيرية تهدف إلى حثّ المتهاونين في معتقداتهم، والمتعاملين مع أنطيوخوس على التوبة والرجوع إلى إلههم.

هكذا نجد أن هؤلاء الاتقياء كانوا يقاومون على جبهتين: جبهة الاضطهاد الخارجي المتمثل بالملك الطاغية، وجبهة الانقسامات الداخلية المتمثلة باليهود المرتدين!

لا شك في أن الكتب الرؤيوية قد ولدت في هذا الظرف العصيب من التاريخ اليهودي. ويعتقد الباحثون اليوم أن غايتها كانت في الأساس تشجيع اليهود على الثبات عبر إظهار الاضطهاد كمرحلة أخيرة من مراحل التاريخ الذي يقوده الله وبمثابة فترة مؤقتة لا بد منها قبل التدخل الإلهي لتحقيق ملكوت نهائي على الأرض كلها، وذلك تحت سلطان الأتقياء من اليهود.

ب ـ خيبة أمل متواصلة:

بالرغم من نجاح الثورة المكابية الوطنية واعتقاد كثير من اليهود بأن الله بدأ يحقق ملكوته عبر الحكم المكابي الجديد، فإن خيبة الأمل ما لبثت أن أصابت الكثير من الأتقياء، أمام إنزلاق الحكام المكابيين إلى أساليب حكم بعيدة كل البُعد عن التقوى والورع! والحقيقة أن الخلافات الكثيرة بين المكابيّين أنفسهم بهدف الاستئثار بالحكم والسلطة، دفع بهم إلى التملق للملوك السلوقيين وطلب مساندتهم ومحاولة استرضائهم.

وما أنتج كلّ ذلك إلّا مزيداً من المساومة على التقاليد اليهودية. وهكذا فالمكابيون الذين حاربوا فكرة التمازج مع الثقافة الهيلينية أصبحوا هم أنفسهم متسامحين تجاهها! بل قل إنهم بدأوا يتصرفون في بلاطهم ومعهم كثير من الكهنة والارستقراطيين، بكثير من التراخي الديني متخلين عن عادات وتقاليد شعبهم.

وهكذا أصيب الاتقياء مرة جديدة بالاحباط وبخيبة الأمل، فولّد عندهم هذا

الوضع شعوراً بالمرارة، فساد الاعتقاد مجدداً بأن الملكوت المنتظر لا يحققه إلّا تدخل سافر من الله لمصلحة الأتقياء فيزيل الشـرّ عن الأرض ويُعيد الأمور إلى نصابها.

في هذا الجو من الاحباط وخيبة الأمل المتواصلة نستطيع أن نفهم ازدهار البدع والاحزاب الدينية اليهودية، وكل منها يسعى على طريقته إلى العمل لإحلال الملكوت الإلهي المنتظر: بعض هذه البدع كالفريسية مثلاً فضلت العمل من داخل الواقع بالتشديد على ضرورة التمسك بالتقاليد وحرفية الشريعة الخ... وبعضها الآخر، كالغيارى، فضّل العمل على تحضير ثورة عارمة تطيح بالحكام الظالمين يهوداً كانوا أو غير يهود.

والبعض الآخر، فضّل الانعزال والانكفاء إلى الصحراء حيث يمكن عيش الشريعة بحرفيتها تحضيراً للزمن الذي سيأتي فيه الله ويفرض ملكوته، ملكوت الأنقياء، فيزيل الأشرار ويعطي الأبرار ميراثه. هذا ما ميّـز بدعة الاسينيين، المعروفين بجماعة قمران: والملاحظ أن كثيراً من الكتابات ذات الأسلوب الرؤيوي تميز نتاج هذه الجماعة الأدبي.

ولعلّ جماعة قمران هي خير مثال للعلاقة الوطيدة بين الأدب الرؤيوي وواقع الاحباط الديني والاجتماعي الذي ميّـز هذه الحقبة من التاريخ اليهودي! وكثير من الباحثين يعتقدون اليوم بأن الأدب الرؤيوي، بما يمثله من رجاء في تجديد شامل للعالم، عبر أحداث درامية وتغيرات كونية، مرده إلى هذا الاحباط الكبير أمام نمو الشـرّ والتراخي الديني والصراع على السلطة وتراجع القيم الأخلاقية.

٢ ـ الأدب الرؤيوي وخلفيته النبوية

قضت كارثة السبي البابلي (٥٨٧ ق.م.) على مؤسستين كبيرتين في إسرائيل، أعني المؤسسة الملكية والمؤسسة الكهنوتية. وإذا كانت هذه الثانية قد استعادت بعضاً من دورها عند الرجوع من السبي إلّا انها فقدت الكثير من تأثيرها لصالح المجمع اليهودي الذي صار مركز الحياة الدينية. أما المؤسسة النبوية فقد استمرت بقوة وساهمت في إعادة بث الرجاء في قلوب المسبيّين العائدين، وشجعتهم على إعادة بناء مدنهم وهيكلهم، ودفعتهم إلى مزيد من الأمل بمستقبل مشرق. غير أن

أنبياء ما بعد السبي ركزوا أكثر أقوالهم على الطقوس وإعادة بناء الهيكل، وإذا تكلموا في أمور عقائدية أو فسروا الشرائع الإلهية فقد كانوا يرتكزون دائماً على تعاليم أنبياء ما قبل السبي، وكأنهم لا يملكون جديداً يقدمونه على هذا الصعيد! وهذا ما أعطى الانطباع بأن النبوءة في فترة ما بعد السبي ظلّت مرتبطة بالماضي أكثر من ارتباطها بالمستقبل.

ثم ان ازدهار المجمع اليهودي والدور الكبير الذي راح يلعبه الربّانيون في تفسير الشريعة وتعليمها، بالارتكاز أيضاً على تعاليم الأنبياء الأقدمين، أعطى الانطباع بأن لا فرق بين الأنبياء والربانيين: فالاثنان يعلّمان ويشرحان نصوصاً قديمة إن من الشريعة أو الأنبياء!

ثم جاء الاصلاح الذي قام به عزرا ونحميا، وتشديدهما على دور الشريعة في الحياة اليومية وضرورة الحفاظ على تعاليمها الحرفية، ليقلص من دور النبوءة في حياة الناس، حتى إن الكثيرين مالوا إلى الاعتبار أن زمن الوحي قد انتهى ليحل محلّه الوحي الرباني (التعليمي)!

من جهة أخرى، صار اليهود يخافون تأثير الديانات الخارجية عليهم وعلى ديانتهم، وكانوا يميلون إلى نبذ كلّ ما من شأنه التماثل بطقوسهم وعاداتها. والمعروف أن تلك الديانات ترتكز كثيراً على السحر والعرافة والنبوءات المستقبلية؛ كذلك، بدأ الكثيرون من المتشددين ينظرون إلى عمل الأنبياء وأقوالهم نظرة فيها الكثير من الريبة والتشكيك خوفاً من الشبه بينها وبين الممارسات الوثنية.

ولعلّ المبالغة في إعلانات بعض «الأنبياء» عن الحرب النهائية التي يزمع الله أن يقودها لمصلحة شعبه لتحريره من الطغيان الاجنبي، قد ساهمت في دفع البعض إلى منطق الثورة والمقاومة المسلحة التي غالباً ما أدّت إلى لجوء الجيوش المحتلة إلى إخماد تلك الثورات بحمّام من الدماء وبوحشية، وبمزيد من القمع والاضطهاد لمجمل الشعب اليهودي. وهذا ما دفع بالكثيرين إلى الاعتقاد بأن «الأنبياء» يضرّون بالمصلحة العامة أكثر مما يخدمونها. وبالتالي، لم يعد للأنبياء من مكانة مهمة في الحياة الدينية في إسرائيل.

طبعاً لم يفقد الشعب رجاءه بنبي حقيقي يأتي في نهاية الأزمنة ليعلّم الناس

ويقودهم إلى الخلاص. وهذا ما نجده متجسداً في شخصية «معلم العدالة» الذي كانت جماعة قمران تنتظر ظهوره قبل نهاية الأزمنة.

غير أن انحسار النشاط النبوي لم يكن دون ترك فراغ كبير في الحياة الدينية، خاصة لدى أولئك الذين لم يجدوا في التعليم الرباني جواباً على مشاكلهم اليومية الواقعية، وعلى إحباطهم الشديد أمام ظلم الاحتلال وإستغلال الأغنياء لهم وانتشار الفساد الأخلاقي والانقسامات الداخلية بين الاحزاب اليهودية...

وهذا ما يفسر أيضاً لجوء الكثيرين منهم إلى نوع من الجماعات المغلقة التي كانت تبحث في عالم الرؤى والسماويات عما لا تجده في عالم الواقع والأرضيات!

هكذا، فالفراغ التي تركته المؤسسة النبوية الغائبة، بدأت تملأه حركة جديدة تستمد من الرسالة النبوية وحيها الأساسي، ولكنها تطورها وتعيد تفسيرها في أسلوب يعتمد كثيراً على عالم الاسرار والخفايا الإلهية ويدّعي كشف مجريات أحداث التاريخ قبل وقوعها.

٣ ـ إعادة تفسير النبوءات

أ ـ جهد تأويني

بالرغم من إنحسار الأدب النبوي، فإن الأدب الرؤيوي قد استعاد كثيراً من النبوءات القديمة بهدف إعادة تفسيرها على ضوء المعطيات التاريخية والاجتماعية المستجدة؛ والخلفية الواضحة لهذا الجهد التفسيري التأويني هو شعور عدد كبير من الناس بأن النبوءات لم تتحقق إلّا جزئياً.

فلنأخذ مثلاً على ذلك إرميا ٢٥: ١٢ التي تحدّد سنوات السبي بسبعين سنة، يعود بعدها المسبيّون إلى أرضهم بينما تنال الأمم الوثنية عقاباً أبدياً على شرها.

صحيح أن المسبيين قد عادوا إلى أرضهم بعد حوالي سبعين سنة، ولكن الأمم الوثنية استمرت في احتلال أرض إسرائيل، والشعب اليهودي بقي يعاني من ظلم ملوك الأمم وتجبّرهم واستغلالهم لخيراته. وإذا نظرنا إلى نبوءات أخرى من أشعيا (٤٠ ـ ٦٦) فإنها تتضمن وعوداً مليئة بالخيرات والسلام والاستقلال، بل قل إن

بعض الوعود النبوية قد وصلت إلى حدّ القول بأن أورشليم ستكون أماً للشعوب كلها ومحجّاً لغير اليهود. . .

كلّ هذه الوعود لم تتحقق بمعناها المادي، وبالعكس فقد أتت أيام صار فيها اليهود مكروهين من الملوك ومضطهدين حتى الموت، ودنّس هيكلهم. . . وهذا كله وضع علامة استفهام كبيرة عند الكثيرين الذين آمنوا بتلك الوعود وظلوا منتظرين أن تتحقق!

وينبري كاتب سفر دانيال ليعيد قراءة نبوءة إرميا، فيعيد قراءة التاريخ ويقرأ العدد سبعين كونه سبعين أسبوعاً من السنين، فتصبح السبعون سنة أربعمائة وتسعين (٧٠ × ٧)!

وهذا ما نجده أيضاً في سفر أخنوخ وغيره.

ومن جهة ثانية، نجد عند الأنبياء كلاماً كثيراً عن نهاية الأزمنة ويوم الدينونة، وغالباً ما كانوا يتكلمون إلى بني جيلهم ويفسرون لهم الأحداث الموشكة الحدوث! ولكن الكتب الرؤيوية استعملت هاتين الصورتين (نهاية الأزمنة ويوم الدينونة) بمعنى جديد وأعطتها صورة مأساوية تنقلب فيها كل الأنظمة الطبيعية. فالشمس تختفي وهكذا القمر، والنجوم تتساقط والبحر يجف أو يتحول إلى بحر دماء. . . والعالم الآتي يختلف كلياً عن العالم الماضي! أما ولادة العالم الجديد فتسبقها دائماً صراعات وحروب ومآسٍ والمؤمنون يضطهدون!. . .

ب ـ نهاية العالم و«حكومة» المؤمنين

وأكثر ما يميّز الكتب الرؤيوية هو تحديدها لعدد الأيام التي تفصل ولادة العالم الجديد عن العالم الفاني. وإذا كان البعض قد اكتفوا بالعدد الرمزي ثلاثة ونصف، فالبعض الآخر قد ذهب بعيداً إلى حد تحديد الساعات والأيام (راجع دانيال الفصل ١٢). وبما أن هذه الانقلابات الكونية لم تتحقق، فغالباً ما يلجأ الكاتب نفسه أو من أتوا بعده إلى تغيير الأعداد وزيادتها أو إعادة تفسيرها. . .

وأخيراً فالكتب الرؤيوية لا تكتفي غالباً بإعلان العالم الجديد والملكوت الإلهي، بل إن بعضهم اعتبر أن الذين سيحكمون هذا العالم هم المؤمنون دون غيرهم، بينما

مصير الآخرين هو الفناء أو الدينونة الأبدية. وفي هذا الإطار فإن بعض الكتب الرؤيوية المكتوبة في جماعات أو أحزاب دينية محدّدة، تؤكّد أن المؤمنين الوحيدين الذين سيحكمون هذا العالم الجديد، هم أولئك المنتمون إليها (راجع كتاب «معركة أبناء النور ضد أبناء الظلمة» المؤلف في قمران).

ج ـ نجاح شعبي

لم يكن الأدب الرؤيوي شعبياً بمعنى انه قد كتب لتقرأه الجماهير! وكما رأينا فإن أكثر الكتب الرؤيوية قد ولدت في جماعات مغلقة تفهم اللغة الرمزية التي كتبت فيها الرؤى.

ولكن هذا لم يمنع من حصول الرؤى على نجاح شعبي كبير، حتى إن كثيراً من الجماعات الدينية، التي لم تكن «رؤيوية» أصلاً استفادت من الكلام على نهاية الأزمنة والجهاد ضد الشرّ وغيرها من التعاليم الرؤيوية لكي تقويّ روح التقوى والورع الدينية عند المنتمين إليها. ويمكننا القول بدون مبالغة إن هذا الأدب قد خلق تياراً شعبياً يعتقد بمعتقدات أصحاب الرؤى وأفكارهم، وينشرها عن طريق الأحاديث في الساحات وفي البيوت وعند حصول كل أزمة سياسية...

والدليل الواضح على هذا الانتشار الواسع هو ترجمة هذه الكتب إلى أكثر اللغات القديمة المعروفة كاليونانية والسريانية والأرمنية والأثيوبية، حتى اننا لا نستطيع الاطلاع على كثير من هذه الكتب إلّا بفضل النص المترجم، مثل كتاب أخنوخ الموجود في الأثيوبية، ورؤيا باروك الموجودة في السريانية...

ولا شك أن هذا الأدب كان له تأثيره في المسيحية التي رأت في كثير من أقوال الأدب الرؤيوي استباقاً لحدث المسيح والعهد الجديد، وما كتاب رؤيا يوحنا إلّا قراءة مسيحية لبعض الكتب الرؤيوية اليهودية على ضوء حدث يسوع المسيح.

٤ ـ خصائص الأدب الرؤيوي

يعتقد كثير من الباحثين في الأدب الرؤيوي أنه «الابن الشرعي» للأدب

النبوي، ولكن يبقى أن الأول له خصائص متعددة وثابتة تميِّـزه عن الثاني، وهذه أهمها:

أ ـ الطابع السـرّي

من الواضح أن كلمة رؤيا تتضمن هذا الطابع السـرّي. فإدعاء الرؤيا الأول هو أنها تكشف أسراراً مخبأة. ولقد كان الاعتقاد قوياً عند القدماء بأن هنالك أسراراً إلهية كثيرة تختص بمسار الأحداث والتاريخ، وهي مكتوبة على ألواح سماوية لا يتسنى الاطلاع عليها إلّا لبعض الصدّيقين المشهورين بتقواهم وبرّهم. وهذا ما يفسّـر ان أكثر الرؤى منسوبة إلى شخصيات قديمة معروفة بتقواها وحسن سيرتها؛ وأشهر تلك الشخصيات هي أخنوخ ودانيال وموسى: والملاحظ أن هؤلاء يختطفون إلى عالم السماويات أو إلى الجحيم حيث يشاهدون تلك الألواح ويقرأون ما عليها من كتابات تدور بمجملها حول التاريخ البشري، والصراع بين الأبرار والأشرار، ونهاية الأزمنة، والدينونة الأخيرة...

والملاحظ أيضاً ان الرائي يتلقى أمراً بعدم كشف تلك الأسرار إلّا في الوقت المناسب، أي في زمن حدوثها. وهكذا فكلّ رؤيا تدّعي أن نهاية الأزمنة اقتربت، مما يبـرّر كشف الأسرار التي تتضمنها.

ب ـ اللغة الرمية

يتميز الأدب الرؤيوي باستعماله لغة مليئة بالرموز والصور الرمزية. ونلاحظ ان كثيراً منها يتردّد في أكثر هذه الكتابات بطريقة ثابتة حتى أضحت تقليداً ثابتاً في كلّ الرؤى. وأهم هذه الصور الرمزية هي:

* التنين الذي يمثّل الشـرّ والهة الفوضى الكونية. والمعروف أن هذه الصورة مأخوذة من الأساطير البابلية القديمة التي تخبر عن معركة شرسة بين مردوك إله بابل وتيامة إلاهة الفوضى والبحر المشخصة بصورة التنين. ولهذا التنين أسماء عديدة مثل لاويتان، راحاب، الشيطان، التهوم...

* الألواح السماوية التي تكلما عنها سابقاً، وهذه أيضاً مستعارة من الأساطير

البابلية، وأشهرها «ألواح القدر» التي كتب عليها ذكر انتصار مردوك على تيامة، وأسماء الأبرار...

* الحيوانات وأعضاؤها: القرون، الأجنحة، العيون، الأذناب... وكلها ترمز إلى الملوك والأمم وتشير إلى قوتها في القتال. وقد ترمز هذه الحيوانات إلى الشـرّ أو الخير على حدّ سواء.

* الملائكة وهي تأخذ أشكالاً بشرية عندما ترمز إلى ملائكة الخير، أو أشكال نجوم وكواكب متساقطة عندما ترمز إلى ملائكة الشـرّ.

* الأرقام وهي كثيرة الاستعمال وترمز إلى الكمال كالعدد ٣ و٧ إلى جهات الكون الأربعة كالعدد ٤ أو إلى إسرائيل كالعدد ١٢ ولهذه كلها أعداد مرتبطة بها: فالعدد ٧٠ هو ٧ × ١٠، والعدد ١٠ هو ٣ + ٧ والعدد ١٤٤ هو ١٢ × ١٢ وقد يصل العدد إلى ١٤٤٠٠٠ أي ١٢ × ١٢ × ١٠٠٠ مما يشير إلى جماهير كثيرة. أما العدد ٦ فهو عكس الكمال ويرمز إلى الشـرّ، كذلك العدد ٣ ونصف فهو يرمز إلى زمن مؤقت يسود فيه الشـرّ...

٥ ـ أهم المواضيع في الأدب الرؤيوي:

أ ـ الوقت الزمني والوقت المطلق:

هنالك نوعان من الوقت: الوقت الزمني وهو يُقاس بالسنوات والشهور والأيام. وفي هذه النظرة إلى الوقت، فإن الزمن يتطور باتجاه أفقي، ابتداءً بوقت معين وانتهاءٍ بوقت معين. أما الوقت المطلق، فهو يُقاس بالنسبة إلى أهمية الأحداث التي تميّـزه! والتركز هنا هو على المعنى الذي يكتسبه التاريخ إنطلاقاً من حدث معين.

في الكتاب المقدس، نجد غالباً تشديداً على الوقت المطلق. فالمهم ليس زمن وقوع الأحداث ومدتها بالدرجة الأولى، بل ما خلفته هذه الأحداث من آثار إيجابية أو سلبية على تطور التاريخ الخلاصي. وهكذا فإن دعوة إبراهيم والعهد الذي أقامه الله معه ومع الآباء غير محدد في فترة زمنية معنية، كذلك حدث الخروج ودخول أرض الميعاد... كلها أحداث أثّرت على التاريخ الخلاصي وقادته باتجاه تحقيق

الغاية الأساسية منه: أي تحقيق وعود الله لشعبه.

أما الوقت الزمني فنجده خاصة في التقليد الكهنوتي حيث إن لوائح السلالات البشرية وسلالات الشعب اليهودي محددة بالأجيال. ولكن هنا أيضاً الأرقام المستعملة لها بالأكثر دلالات رمزية من خلال أعداد معينة: أربعمائة الخ...

في هذا الإطار، وبالرغم من أن الأدب الرؤيوي يشدّد على أهمية الأحداث ومعناها في التاريخ الخلاصي، إلّا أن هذا الأدب يتميّز بتشديده أيضاً على قياس الوقت بالاعداد منذ بداية العالم إلى نهايته. وانطلاقاً من التقليد الكهنوتي المذكور نجد في إسرائيل إعتقاداً راسخاً بأن عمر العالم هو أربعة آلاف سنة. وإذا درسنا لوائح السلالات البشرية في سفر التكوين نجد أن الخروج من مصر يقع في سنة ٢٦٦٦ بعد الخلق! هكذا، فإن حسابات الأدب الرؤيوي في زمن الثورة المكابية أي حوالي ١٢٠٠ سنة بعد الخروج، أدت إلى الاعتقاد أن نهاية الأزمنة صارت قريبة. وهذا ما يفسّر كيف ان كتاب دانيال يؤكد ان نهاية العالم قد صارت على مسافة أعوام قليلة محسوبة بعدد من الأيام لا تتعدى الألف ومئتين وتسعين يوماً (دا ١٢: ١١) أو على الأكثر الألف وثلاث مائة وخمسة وثلاثين يوماً! (دا: ١٢: ١٢).

وفي كتاب دانيال أيضاً قياس آخر للزمن، منذ السبي إلى نهاية الأزمنة، محدّد بسبعين أسبوعاً من السنوات، أي ما يعادل أربعمائة وتسعين سنة! ونجد مثل هذه القياسات للأزمنة في رؤيا أخنوخ (٦٥: ٣ ـ ٤).

ب ـ زمن النهاية

منذ الإعلانات النبوية، تميّز لاهوت التاريخ في إسرائيل بالتشديد على الزمن النهيوي الذي سيتدخل فيه الله ليعطي الانتصار لشعبه وليؤسس مملكة قومية يهودية بقيادة ملك ـ مسيح. ويطلق عادة على هذا الزمن اسم «يوم الربّ» حيث سيدين الله الأمم وإسرائيل أيضاً.

غير أن الأدب الرؤيوي ذهب أبعد من ذلك بكثير بتأكيده على أن يوم الدينونة سيحدث تغييراً جذرياً في الكون! إنه بداية جديدة لخليقة جديدة. وهكذا، فالزمن بالنسبة لهم مقسوم إلى حقبتين: الحقبة الحاضرة وتتميز بانتصار مؤقت للشرّ!

والحقبة الجديدة الأبدية التي تتميّز بانكسار نهائي للشـرّ وانتصار أبدي للخير.

وهكذا، فالملكوت الذي يزمع الله تحقيقه في الحقبة الأبدية، هو ملكوت أبدي ومتسام: حيث يعيش الأتقياء والأبرار: لا أولئك الذين يتحقق الملكوت في زمنهم! بل أيضاً جميع الأبرار منذ بدء الكون حتى الزمن الجديد. ولذلك، نجد هنا تأكيداً على قيامة الأموات ليعيشوا في سعادة دائمة.

وإذا كانت بعض الكتابات الرؤيوية تتكلم بوضوح عن الملكوت كونه ملكوتاً سماوياً وروحياً (رؤيا يوحنا)، إلّا أن أكثر الكتابات الأخرى تعطي إنطباعاً بأن هذا الملكوت الجديد هو أرضي فلا يتميّـز عما سبقه سوى كونه أبدياً لا يتزعزع، لا شـرّ فيه ولا أشرار! ولعل: أهم شخصية في هذا الملكوت هي شخصية ابن الانسان.

ج ـ إبن الانسان

هنالك دراسات لا تحصى عن هذه الشخصية الغامضة ولا يسمح لنا المجال للتوقف هنا عند كل هذه الدراسات والآراء الناتجة عنها.

وبالاختصار يمكننا القول بأن مميزات هذه الشخصية هي التالية:

* ليس ابن الانسان شخصية محض أرضية مثل المسيح في العهد القديم؛ انه يأتي من السماء، أو على الأقل، إنه مرتبط ارتباطاً أساسياً بها.

* هذه الشخصية تتميز بالتقوى والبرارة والانصياع لإرادة الله، ومهمتها أن تحقّق مشيئة الله في التاريخ، وأن تقود الملكوت الجديد الأبدي.

* قد لا يكون ابن الانسان شخصية محددة، بل مجرّد صورة لكلّ الأبرار والصدّيقين الذين سيعيشون في الملكوت الجديد ويحتلّون فيه مراكز مرموقة (راجع دا ٧).

٦ ـ الأدب الرؤيوي والبدَع المعاصرة

ما قلناه حتى الآن عن الأدب الرؤيوي يؤكد الطابع الخاص والمتميز لهذا

الأدب. وإنطلاقاً من تأثره الشديد بالواقع الصعب والمليء بالأزمات السياسية والحروب والاضطهادات الدينية والانقسامات في الفترة الممتدة بين سنة ٢٠٠ ق.م. و١٠٠٠ ب.م.، يمكننا التأكيد بأن أهم ما يميّزه هو شعور أصحابه بالاحباط أمام انتصار الشرّ والاشرار، وعدم الرضى عن الواقع الحالي بكل أبعاده. وقلنا أيضاً بأن بعض الكتب الرؤيوية قد ولدت في جماعات أرادت الإجابة على أسئلة كثيرة، لم يستطع الأنبياء والربانيّون الإجابة عنها. أهم تلك الأسئلة هي: لماذا الشرّ مستشر؟ لماذا يسمح الله بأن يضطهد ويُظلم أولئك المؤمنون به؟ «حتى متى» سيستمر هذا الوضع الشاذ؟ الخ...

والسؤال المطروح في هذا العدد من المجلة الكهنوتية هو التالي: ماذا يفسّر وجود هذه البدع الجديدة في أيامنا؟ لماذا يتميّز أكثرها بروحانية رؤيوية؟ هل نحن أمام ظاهرة رؤيوية جديدة؟ ولماذا في عصرنا بالذات؟ هل لأن الشعور السائد عند أغلبية الناس هو أن عالمنا قد غرق في عقلية مادية شريرة حيث القوي يأكل الضعيف، والغني يستغل الفقير؟ أم أن البحث عن عالم سماوي هو أفضل حلّ وجواب للإنسان المعاصر الذي يعيش في القلق الدائم؟

قد تكون أكثر الإجابات على هذه الأسئلة إيجابية! ولكن الأكيد ان ظاهرة البدع «الرؤيوية» في عصرنا لا تخلو من أبعاد تجارية مادية يستغل فيها مؤسسو البدع أولئك المنتمين إليها للأسباب المذكورة أعلاه!

نترك للزملاء أن يوضحوا لنا، فيما يوضحون، الكثير من القضايا التي تتعلق بالبدع الحديثة وارتباطها بالبدع القديمة.

خاتمة

قد يكون للأدب الرؤيوي تأثير سلبي على بعض الناس الذين يقرأونه ويفسرونه بطريقة حرفية. هذا ما حصل في العصور التي ظهرت فيها الكتب الرؤيوية؛ هذا ما يحصل أيضاً في أيامنا. والقاسم المشترك بين هؤلاء المتأثرين سلبياً بالأدب الرؤيوي هو انهم ينعزلون على أنفسهم ويتحولون إلى بدع تغذي لدى أصحابها انتظارات خاطئة ووهمية لنهاية وشيكة للشرّ وللعالم الحاضر!

ولكن الأدب الرؤيوي يتميّز، كما رأينا، بلغة رمزية فيها الكثير من المبالغات السطرية، والصور الغير الاعتيادية والأعداد الرمزية. ولكنها مجرد أسلوب أدبي يريد أصحابه من خلاله، وخاصة كتابي دانيال ورؤيا يوحنا، أن يشجّعوا ويحثوا المؤمنين على عيش حياة بارة، وعلى وضع ثقتهم بالله الذي فيه وحده الخلاص. وكل ما يرد في هذين الكتابين عن نهاية العالم، هو بالأحرى تعبير عن إيمان أكيد بأن كل التاريخ يسير نحو الكمال، أي تحقيق ملكوت الله.

لذلك يمكننا التأكيد بأن التفسيرات الحرفية التي أعطتها البدع القديمة، والتي تعطيها البدع الحديثة، لما ورد في هذين الكتابين، هو بعيد كل البعد عن مفهومهما اللاهوتي الحقيقي للتاريخ وللخلاص.

والذين يتنبأون اليوم بنهاية وشيكة للعالم، ليسوا الأولين ولن يكونوا الآخرين! ولكنهم جميعاً سيخيب أملهم، لأنه كما قال ربنا يسوع المسيح: «لا أحد يعرف تلك الساعة، لا الملائكة ولا الابن نفسه، بل الآب وحده»!